الفرس والترك:

تفاهُمات ثنائية على اقتسام الكعكة العربية

الصراع الفارســي-التركي كانت تفرضه بعض الحســابات الإقليمية، ولم تكن تؤجِجه النعرات العِرقية أو الحسابات التاريخية، وفشل سياســات التوسع الفارسية-التركية نحو الشرق والغرب دفع القوتين إلى اختيار المنطقة العربية والإسلامية كفضاء حيوي للتوسع والتمدد تاريخيًّا.

في هذا السياق كان المعطى العِرقي نقطة التقاء الأطماع التركية-الفارسية تجاه العرب، وهو ما جعل الطرفين يعملان على توســيع نفوذهما على حســاب العرب أولًا، ثم تفادِي ما أمكن الصدام المباشــر بين القوتين، وهو ما يقطع بوجود تفاهمات و"طبخات" بين الطرفَين لم تكن في معظمها علنية، وإنما كانت سرية.

لقــد اعتبر الفرس والترك أن العرب هم الحلقة الأضعــف في المنطقة، وبالتالي قاموا بالقفز علــى المُعطَى الديني انتصارًا للعقيدة العِرقية، وهنا نســجل بأن "تاريخ العلاقات بين هاتَين القوتين (الأتراك والفرس) والعالم العربي تاريخ طويل، فيه كثير من الصراعات والتحالفات، خصوصًا أن مظلَّة الإســلام الحنيف تغطي هاتين الدولتين والدول العربية أيضًا، وقد يتصوَّر البعض أن الدين المشترك يؤدي إلى تفاهم أكثر، وليس ذلك دقيقًا؛ لأنه يفتح الباب لاندماج أوسع وتنافس أشد".

> **الرابطة الدينية مع العرب لم تكن رادعًا أمام الطموحات التوسعية الفارسية - التركية**

إن العطــف على مــا قاله الدبلوماســي المصري مصطفى الفقي يقطع بأن الانتماء الديني ورابطة الإســلام لم تكــن رادعًا للأتــراك والفرس للنظر من زاوية الأخوة في الدين تجاه العرب، لذلك تغلَّبــت النعرة العِرقية على الــولاء للنص الديني الذي يُحرِّم الهجوم أو الاســتيلاء على أراضٍ عربية مسلمة خارج منظومة البغي، والتي تعطي الحق للمسلم للدفاع عن نفسه حتى في مواجهة مسلم آخر (إخواننا بغوا علينا).

وإذا كانــت المواجهات التركية الفارســية ثابتــة ومُوثَّقــة، فإنهــا وقعت نتيجــةً لاعتبارات جيوســتراتيجية مرحلية، والثابت أيضًا أن كليهما لم يكن يريد القضاء على الآخر قضاءً مُبرَمًا، بل كان التنافس فقط على الأراضــي العربية، وليس على أراضي كل منهم، وهنا تقطع الحوادث والشــواهد بأن الأتراك والفرس اســتخدموا المنطقة العربية كأرض معركة وصراع نفــوذ فقط، والنتيجة مئات الآلاف من الضحايا.

لقد أسهم نجاح أتاتورك في تأسيس "تركيا الحديثة" إلى دخول القوتين الإقليميتين في مرحلة من التهدئة، إن لم نقل التنسيق، ولو في الحد الأدنى، وهنا نسجل أنه ومنذ سنة (1923) "توقَف الصراع المبني على الأســاس المذهبي الذي كان حُجة الحروب التاريخية بين الدولتين، بل على العكس، كان شــاه إيران رضا بهلوي يعتبر "أتاتورك" مثالًا يُحتذى به في الســعي نحو العلمانية والعلاقة بالغرب، وتحديته "لإيران الصفوية" الغارقة في أوهامها المذهبية".

إن دراســة التعبيرات الســلوكية لكل من إيران وتركيــا تقطع بأن التحالــف بينهما فرضته معطيات تاريخية وأخرى جيوســتراتيجية، خاصة الوضع في سوريا، والتحدي الكردي الذي ينشط في أماكن شاســعة تخضع "للإدارة" التركية والفارسية، في ظل الإشــارات القوية التي أرسلتها واشنطن بضرورة قيام كيان كردي متحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية.

إن مــا يميز السياســتين التركية والإيرانية هو اســتمرار الخيط الناظم فــي محاولة تفجير الأنظمة العربية من الداخل، ثم الركوب على حالة التوحش وإدارتها، وصولًا إلى تأســيس كيانات تابعة أيديولوجيًّا لتنظيمات الإسلام السياسي، وسياسيًّا لأنقرة أو طهران.

ولعل التحليل الإستراتيجي للبيئة الحاضنة للتدافع الفارسي-التركي من جهة والدول العربية مــن جهة أخرى يجعلنا أمــام مقاربتَين مختلفتَين، وتوجدان على طرفَــي النقيض، فمن جهة هناك الطموحات الفارســية-التركية التي لا زالت تعاني من ترسُّــبات عرقية انعكســت علــى بنية الحكم، وبالتالــي على الاختيارات السياســية لهاتين القوتين، وهو ما جعلها حبيســة أطماعها التوســعية الناعمة والخشــنة، وبين مقاربة عربيــة اختمرت لديها مفاهيــم الدولة-الوطنية، وتشــبَّعت بقِيَم الســيادة، وبالتالي تبحث على فضاء إقليمي مســتقر يســاعد على تحقيق رؤيتها الإستراتيجية على المدى المتوسط والبعيد.

إن التاريخ، قديمه وحديثه، يقطع بأن العرب لم يكونوا يومًا أداة لتقســيم دول الجوار، ســواء أكانوا فُرسًــا أم أتراكًا، بينما الفرس والأتراك، باختلاف الأدوار والجغْب، غرفوا في قلب مشاريع التقسيم وإضعاف الــدول العربية، معتمدين في ذلك على بعض التنظيمات التي تتماهى أيديولوجيًّا مع أنقرة وطهران، والتي لها أطماع وأحلام "تمكينية"، ولو "تحت الوصاية" التركية أو الفارســية، ولذلك نرى بأن ضمانات الأمن القومي لــدول الخليج العربي تنطلِق من تنقية البيئة الداخلية من الامتدادات التركية والإيرانية، عبر تحييد التنظيمات الفوق ترابية، التي لا زالت تكفر بفكرة الحدود والأوطان.

إن التغيرات الجيوستراتيجية التي تعيشــها المنطقة، قد تكون لها انعكاسات إيجابية إذا ما اقتنعت إيران وتركيا بالتصور العربي الذي يرى في "حســن النية" و"التعاون الوثيق" و"القطع مــع عصبيات الجاهليــة" مداخل أساســية لتأســيس بيئة إســتراتيجية جديدة.. بيئــة هادئة، مستقرة ومتعاونة.

المراجع:

1) مصطفــى الفقي: "التنافس الصامت بين إيران وتركيا على العالم العربي"، مقالة نُشرت على موقع "إندبندنت" بالعربي على الرابط:
https://www.independentarabia.com/node/178326

2) حميدة بالسعد، "المنطقة العربية بين مطرقة الشمس الإيرانية والقمر التركي"، مقالة نُشرت على موقع العرب 21 على الرابط:
https://arabi21.com/story/900077/